الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور مولاي الطاهر– سعيدة –

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص: دراسات النقدية

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس

الموسومة بـ:

الجانب الخلقي في شعر المعلقات

" امرؤ القيس، طرفة بن عبد، زهير بن أبي سلمى، لبيد بن ربيعة العامري، نموذجًا"

إشراف الدكتور:

– لعربي دين

إعداد الطلبة:

– بن عوينة فيصل الفاروق.

– بن كابوية عبد العالي

السنة الجامعية: 2015–2016

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور مولاي الطاهر – سعيدة –

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص: دراسات النقدية

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس

الموسومة بـ:

الجانب الخلقي في شعر المعلقات

" امرؤ القيس، طرفة بن عبد، زهير بن أبي سلمى، لبيد بن ربيعة العامري، نموذجًا"

إشراف الدكتور:

– لعربي دين

إعداد الطلبة:

– بن عوينة فيصل الفاروق.

– بن كابوية عبد العالي

السنة الجامعية: 2015-2016

شكر و عرفان

اللهمّ ما بنا من نعمة فمنك، لا إله إلاّ أنت، نحمدك على آلائك ونسألك الهداية إلى مرضاتك.

يطيب لي وأنا أخطّ هذه السطور أن أقدم وافر شكري وعظيم امتناني إلى كل من ساهم في إنجاز هذا البحث، ولاسيما الأستاذ المشرف الدكتور الفاضل "**لعربي دين**" الذي كان لي خير رفيق ومعين في إعداد هذا العمل بما وفره لي من مراجع وبما أسداه لي من إرشادات ونصائح غالية، فبارك اللهم له في عمره وأهله وماله وولده، كما أتقدّم بالشكر إلى جميع أساتذة اللّغة العربية بجامعة الدكتور مولاي الطاهر (سعيدة)، والشكر لأصحاب المكتبات الخاصّة والعامّة التي طالما فتحت لي أحضانها، والشكر للأخوين العزيزين "أبا حمزة محمد جمال الدين قاسم" و"علي وجمال" الذين سهرا معي على كتابة هذه الرسالة و إخراجها.

إهداء

إلى علّة كياني، ورفيقيَّ في أفراحي وأحزاني، والدي الكريمين اللذين أتمنى لهما دوام الصحّة والعافية.

إلى إخوتي وأخواتي وصغارهم البراعم الزاكية

إلى زملائي و زميلاتي في العمل والدراسة.

إلى كل أصدقائي بدون استثناء .

إلى كل محب العلم والمعرفة.

أقدّم هذا الجهد المتواضع.

إلى كافة أعضاء الرابطة الوطنية "lnea"

بن عوينة فيصل الفاروق

مقدمة

فقد كتب لي وشرفني بالالتحاق في هذه الجامعة -الدكتور مولاي الطاهر- فعقدت العزم علي أن فيما يخدم لغتنا العربية –لغة القرآن وكنز البيان– فوقع اختياري بتوفيق من الله ثم ميل في نفسي وتوجيهات سديدة من أستاذي وشيخي القدير الأستاذ الدكتور "لعربي دين" على اختيار موضوع رسالتي هذه (الجانب الخلقي في المعلقات العشر).

إنّ البحث في الجانب الخلقي في شعرنا العربي لم ينل ما يستحقه من اهتمام الباحثين والأدباء والنقاد، رغم أن بواكر الدراسات الأدبية الحديثة اتخذت من الأخلاق موضوعا رئيسيا كأحمد أمين، وزكي مبارك.

كما تعرض في الجانب الخلقي كثير من الأدباء والنقاد العرب قديما وحديثا ضمن مؤلفاتهم كابن بطوطة، وقدمة، وابن شرف القيرواني، وفي العصر الحديث نجد كتب النقد والأدب تُشير إلى الأخلاق ومدى التعبير عنها في الأدب حتّى أنّ منهم من نجده يضع الأخلاق أُسًا من الأسس الجمالية في النقد العربي.

إنّ الباحثين قلّما تناولوا العلاقة بين الأخلاق والأدب –خاصةً الشّعر الجاهلي- رغم أنّ الشّعراء الجاهلين ضمنت أشعارهم من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسّها إلى ما طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها في رخائها وشدّتها ورضاها وغضبها وفرحها.

و **الإشكالية** التي سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا البحث هي:

- ✓ ما هي القيم لأخلاقية لدى شعراء المعلقات العشر؟

وتندرج ضمنها مجموعة من التساؤلات أهمها:

- ما مدى علاقة بين لأدب و لأخلاق؟
- ما أثر البيئة في لأخلاق الجاهليين ؟.

كمحاولة للإجابة عن هذه الإشكالية بجوانبها المختلفة اعتمدت في هذا البحث **منهجا** تكامليا جمعت فيه بين والوصف والتحليل، وهذا تماشيا مع طبيعة الموضوع الذي تطلب ذلك.

وأما **خطة البحث** فتبعا لأهداف الرّسالة، وبناءا على ما توفر من مادّة علمية فقد جاءت على النحو الآتي: مقدمة وفصلين، حيث قست كلّ فصل إلى مبحثين، **الفصل الأول** المعنون بـ: الأخلاق والأدب، حيث تناولت في المبحث الأول: تعريف الأخلاق والأدب والمبحث الثاني نظرية لالتزام، و المبحث الثالث القيم الأخلاقية في القصيدة الجاهلية، ثمّ **الفصل الثاني** المسمّى بـ: الجانب الخلقي عند شعراء المعلقات العشر (دراسة تطبيقية)، تطرقت في المبحث الأول إلى لأخلاق عند الشعراء المعلقات العشر، والمبحث الثاني: أمهات والفضائل.

ثم **خاتمة** كانت عبارة عن حوصلة لأهمّ النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

وأخيرا أرجو من الله عزّ وجلّ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، فإن أصبت فذلك المبتغى، وإلاّ فحسبي أنني حاولت والله ولي التوفيق.

الفصل الأول:

الأخلاق والأدب

المبحث الأول: تعريف الأخلاق والأدب

1/- مفهوم الأخلاق

جاء في اللّسان (الخُلق) بضمّ وسكونها بمعنى الطبيعة التي يخلق بها الإنسان، وهو الدين والطبع والسجية، والجمع أخلاق[1]، والأخلاق جمع خُلُق أو خُلْق، أي: الدين والعادة والطبع والسجية، ويشتبك معنى خُلُق أو خُلْق مع الخَلْق أي: التقدير والصنع والإنشاء من حيث إنّ صحاب الخُلُق أو السجية قُدِّرَ عليهما، أي: فُطِر أو جُبِل أو طُبِع أو خُلِق عليهما[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (سورة القلم، الآية رقم: 04)، أراد على عادة عظيمة، وقد فسّرت عائشة رضيَ الله عنها هذه العادة فقالت: ﴿كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنْ﴾ إذ ظلّ متمسكًا به وبآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف[3].

وقد حرص الرسول الكريم على الترغيب بمكارم الأخلاق والنهي عن كلّ ما يشينها فقال: ﴿كَرَمُ الْمَرْءِ دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ﴾[4].

والخُلُقُ: «مجموعة العادات والعواطف والمُثل التي تُميّز الفرد وتجعل أفعاله ثابتةً نسبيًا ويُمكن توقّع صدورها عنه»، و«أمّا الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدًا –صلى الله عليه وسلم- فهو الدين الجامع لما أمر الله به مطلقًا»[5]، والخُلُق هو: «حال للنفس به يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزةً وطبعًا، وفي بعض الناس لا يكون إلاّ بالرياضة والاجتهاد»، وذهب علي ب أحمد الجرجاني في (التعريفات) إلى

---

[1]- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، مادة: خلق.
[2]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، ج4، تح: عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، 1985، ص 151.
[3]- ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، ص 194.
[4]- أخرجه مالك في الموطأ، ص 276.
[5]- ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج10، نشر، عبد الرحمن بن بن قاسم، المغرب، 1401هـ، ص 258.

أنّ: «الخلق هيئة راسخة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية لأنّ من يصدر منه بذل المال على الندور، لا يعتبر السخاء من أخلاقه، وكذلك من تكلّف السكوت عند الغضب بجهد، لا يقال: «إنّ الحِلْم من أخلاقه. والخلق ليس رهن بالفعل فقط فرُبّ الشخص سخيٍّ لكنّه لا يستطيع أن يقدم شيئًا لقلّة ماله»[1].

ويعرف علماء النفس الأخلاق بأنّها: «الفلسفة العملية التي تبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني. وعليه فإنها تنقسم إلى:

- **أخلاق عملية**: تبحث في الجوانب الخلفية للفرد والجماعة في حياتهم المهنية والسياسية.
- **وأخلاق نظرية**: تبحث في نظرية السلوك. وبالجملة فإنّ الأخلاق في النظرية الغربية ما هي إلاّ ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخلٌ في بنائها على أنّها نتاج بيئتها وبنت عصرها.

2/- مدى العلاقة بين الأخلاق والأدب:

يُمكن لنا دراسة مدى العلاقة بين الأخلاق والأدب فلابدّ أولاً أن نقف على مفهوم الأدب.

تعريف الأدب:

دلّت كلمة الأدب في العصر الجاهلي على الدعاء للمأدبة، ثمّ حملت بعد ذلك معنى نفسيًا خلقيًا شأنه شأن الكلمات الأخرى التي يبدأ معناها حسّيًا ثمّ يُنتقل بها من معناها الحسّي إلى معناها النفسي الخلقي، ونستشهد على معناها الحسّي المادي بقول طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى ۞ لا ترى الآدب فينا ينتقر

---

[1]- علي البطل، **الصورة في الشّعر العربي حتّى آخر القرن الثاني الهجر: دراسة في أصولها وتطوّرها**، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983، ص 106.

يقول أحمد محمد الحوفي: «ثمّ توسّعوا في معناها فاشتّقوا منها –أي كلمة (أدب)– الأدب بمعنى الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة؛ لأنّه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح. وبين المعنيين –الحسّي والخلقي– صلة وثيقة لأنّ العرب يحيَون في بادية مقفرة شحيحة بالزاد فتمدّحوا بالقرى، وبالغوا في الحفاوة حتّى تخرق فيها بعضهم فكان من الطبيعي أن ينتقلوا من معنى الأدب الحسّي المادي إلى ذلك المعنى النفسي الخلقي»[1]، «وإنّ المحن تُقوّي الفضيلة وتزيدها فغنّ امرأ الخير لا يكون بائسًا البتّة. بشاشةُ الحكيم وثباتُهُ خُلُقُه»[2].

وقول شوقي ضيف: «وربّما أُستخدِمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقي غير أنّه لم تصلنا نصوص تُؤيّد هذا الظنّ. وذهب "نالينو" إلى أنّها أُستخدِمت في الجاهلية بمعنى السنة وسيرة الآباء مفترضًا أنّها (دأب) فقد جمع العرب (دأبًا) على آداب كما جعلوا بئرًا على آبار ورأيًا على آراء، ثمّ عادوا فتوهّموا أنّ آدابًا جمع أدب فدارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة، ودلّوا على محاسن الأخلاق والشيم»[3].

وقد وظّف بعض شعراء المعلاقات ضمن دواوينهم الشّعرية هذا المعنى الخلفي لكلمة (أدب) ممّا يرفع عن كواهلنا دلك الظنّ الذي ذكره شوقي ضيفي سابقًا. فهذا طرفة بن العبد يوصي أبًا بتأديب وليده ومعرفته من يُجالسه فيقول[4]:

أَدِّب وليدك وانظر من يجالسه ❁ ما دمت تملكه أو من يماشيهِ

أَدِّب: روّضه على محسن الأخلاق. يماشيه: يمشي معه.

أي: روّض ابنك على محاسن الأخلاق في صغره واحرص على معرفة من يجالسه ويماشيه.

---

[1]- أحمد محمد الحوفي، **الحياة العربية من الشّعر الجاهلي**، دار الفكر العربي، مصر، ط2، 1963، ص 08.
[2]- أرسطو طاليس، **علم الأخلاق**، تر: أحمد لطفي السيّد، ج1، دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1924، ص 209.
[3]- شوقي ضيف، **العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ط11، ص 08.
[4]- ندى الشايع، **معجم لغة دواوين شعراء المعلّقات العشر تأصيلاً ودلالةً وصرفًا**، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1993، ص 92.

المبحث الثاني: نظرية الالتزام

1/- معنى الالتزام في اللغة:

جاء في لسان العرب: «والفعل لزم يلزم، والفاعل: لازم، والمفعول به: ملزوم، لزم الشيء يلزمه لزمًا ولزومًا، ولازمه ملازمةً ولزامًا والتزمه وألزمه إيّاه فالتزمه. ورجل لزمه: يلزم الشيء فلا يُفارقه»[1].

وفي القاموس المحيط: «هو لُزَمة كهُمَزة أي: إذ لزم شيئًا لا يُفارقه»[2]، وفي المعجم الوسيط: «التزم الشيء أو الأمرَ: أوجبه على نفسه»[3].

ومن كلّ ما تقدّم يظهر لنا بأنّ الالتزام في اللّغة يعني: «التعلّق بالشيء والمداومة عليه وعدم مفارقته»[4]، خاصةً على من أوجبَ على نفسه ذلك الالتزام بأيّ صورة كانت فمن الناس من يوجب عليه طبعه وخلقه التزام الشيء والمداومة عليه ومنهم من يوجب عليه ذلك الالتزام أمور أخرى كالثوابت العقدية والقوانين والسياسية وما إلى ذلك.

ومن هنا نرى أنّ أوضح صورة من صور الالتزام ما كانت نابعة من نفس الملتزم بما تمليه عليه سجاياه وأخلاقه وطباعه.

1- ابن منظور، **لسان العرب**، مادة: لزم.
2- محمد بن يعقوب الفيرز أبادي مجد الدين، **القاموس المحيط**، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، 2005، مادة لزم.
3- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، القاهرة، ط3، 1998، مادة: لزم، ج2، ص 823.
4- ناصر بن عبد الرحمن الخنين، **الالتزام الإسلامي في الشّعر**، مكتبة الرشد، الرياض، 2004، **ص** 25.

2/- معنى الالتزام في الاصطلاح الأدبي:

نظرًا لاختلاف المبادئ والثقافات والميول الفكرية والاتجاهات السياسية اختلف مفهوم الالتزام عند الأمم وعند كثيرٍ من الأدباء والنّقاد. فهذا الروائي الأمريكي "نورمان مالر" يُفسّر الالتزام بأنّه: «نوع من التعاقد أو الارتباط بشيء خارج الذات»[1]، ويعتبر هذا التفسير قاصرًا حيث جُعِلَ الالتزام ارتباطًا بشيء خارج الذات وهذا التفسير أقرب إلى الإلزام منه إلى الالتزام إذ أنّ كلمة الالتزام توحي بالتفاعلية الذاتية وعلى ذلك فأين ما يلتزمه الأديب ممّا تفرضه عليه طباعُهُ وأخلاقُهُ وسجاياه؟ ! والحجّة على ذاك ما نجده في العصر الجاهلي —وبالذات الشّعراء الصعاليك– الذي خرجوا على قبائلهم وهاموا في الصحاري والقفار فلا أعراف ولا تقاليد قبلية تلزمهم إلاّ أنّ ذلك الانفراد لم يَحِدْ بهم عمّا تُمليه عليهم طباعهم وأخلاقهم فيلزمون أنفسهم بما توحي لهم تلك الأخلاق والطباع بعيدًا عن الالتزام بما هو خارج الذات ممّا تفرضه السياسات والأفكار والثقافات إلاّ أنّها الجبلة أو الطبع الذي يجعل الواحد منهم يلتزم بما فطرت عليه نفسه من سجايا يظلّ يدافع عنها بكلّ ما أوتيَ من صور البيان.

[1]- لويس عوض، **الاشتراكية والأدب**، دار الآداب، بيروت-لبنان، 1963، ص 180.

المبحث الثالث: القيم الأخلاقية في القصيدة الجاهلية

تعدّد الفضائل الإنسانية والقيم الأخلاقية في الشّعر العربي، وذلك لوجود رابط عاطفي ووجداني يجمع بينهما، وسوف أحاول أن أتتّبع بعضًا منها في القصيدة الجاهلية باعتبارها الأصل الأوّل والجامع الكبير لمختلف السجايا العربية التي تفنّن الشّاعر العربي في وصفها، فمفهوم الكرم مثلاً –أصيل عند العربيّ– قديم قِدم المواقف الاجتماعية التي تنزع إلى تشريف العنصر الإنساني حتّى عُرِف بكثرة سخائه[1]، ووفرة عطائه وقراه لضيفه كدليل على علاقة عاطفيته الاجتماعية والقبلية وسعًا إلى ربط أواصر المحبّة والألفة ونشرها بين القبائل العربية، وهكذا تحتّم على أن يقدّم يد العون لكلّ طارق أو عابر سبيل يقصده ليلاً أو نهارًا، شتاءً أو صيفًا، أو ربيعًا أو خريفًا، فالعطايا الروحية والمادية لا تحكمها الطبيعة.

وبحثا منا، سنمضي إلى معلقات العرب الجاهلية لوجود ترسبات معتقداتية سادت في تلك الفترة من الزمن اتخذت من الحيوان ولحم طعاما لذيذا على موائد الكرم، فعمل الجاهليون على إبقاء النّار مشتعلة أمام الخيمة ليلا، لتهتدي إليها الأنفس الضالة والأرجل الراحلة، قال الشاعر الخطيئة:

عوازب لم تسمع نبوح مقامة ❁ تحتلب إلاّ نهار ضجورها[2]

سوف أتطرق في مباحث لاحقة إلى قداسة الحيوان عند العربي الذي يذبح ويقدم للأضياف كالشياه والناقة لحما طريا أو مشويا، فالتكريم قداسة الكرم العربي، وفي ذلك يقول الشاعر سويد بن أبي كاهل، معبرا عن طقس شعائري قواهم حركة الريح التي يعتقد العربي فيها كثيرا بل يراها مبعثا للخير أو الشر[3]:

وإذا هَبَّتْ شمالا أطعموا ❁ في قدور مشبعات لم تجع

وجفان كالجوابي ملئ ❁ من سمينات الذرى فيها ترع[3]

[1]- أبو علي القالي، **الأمالي**، ج1، تح: محمد عبد الجواد، دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان، ص 117.
[2]- بن قتيبة، **الشعر والشعراء**، تقديم: حسن تميم، دار إحياء العلوم، لبنان، ص 208.
[3]- المفضل الضبي، **المفضليات**، تح: عبد السلام هارون، ط6، بيروت- لبنان، ص 194.

كما يقول عتيبة المازني:[1]

ومستنبح بات بالصدى يستتيه ۞ إلى كلّ صوت فهو في الرحل جانح

فقلت لأهلي: ما يغام مطية ۞ وسار أضافته الكلاب النوابح[1]

حين نعود إلى الدور الاقتصادي الذي لعبته الإبل، نجدها تمثل الحياة المقبلة باعتبارها الطعام الذي يقتاتونه واللبن الذي يشربونه والمركب الذي يحمل بضائعهم إلى الآفاق البعيدة وذلك بشق الأنفس، وفي المجتمعات الجاهلية البدوية، تذبح الناقة وتعدم للأهل والأصحاب والخلان لحما مشويا. يقول امرؤ القيس:[2]

ويوم عقرت للعذارى مطشيّتي ۞ فيا عجبا، من كورها المتحمل

فظل العذارى يرتمين، بلحمها ۞ وشحم كهدّاب الدّمقين المفتّل[2]

فظلّ يتخذ من وبرها الملابس التي تقيه الحرّ، وهي ملابس باهظة الثمن باعتبار الوبر أغلى ثمنا وأجود حياكة، فمنهما تنسج الخيم والأخبية والبجد، فالوبر والصوف لهما أهمية اقتصادية وغذائية، كما صنعوا منه زينة وفرشا في المجالس وجلال في المحافل.

ويعرف العرب بالتدبير ساعة اشتداد الزمن وجدب الأرض ولذلك اتخذوا من الإبل موردا غذائيا، وأقصد به صنع أكلة جاهلية تدعى (العلهمز)[3]، وهي عبارة عن أكلة تتركب من أوبار الإبل ودم الحَلَم (بفتح الحاء واللام)، فكانوا يشوونها ثمّ يبتلعونها اضطرار؛ ثم (المحدج) وهو عبارة عن دم يخلط فيؤكل في الحدب. وقيل: المحدوج دم الناقة

---

[1]- محمود شكري الألوسي، **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**، ج1، شرح وتصحيح محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ص 47.

[2]- التبريزي، **شرح المعلقات العشر**، تح: فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، سورية، ص 350.

[3]- عبد المالك مرتاض، **السبع معلقات: مقاربة سيميائية أنتربولوجية لنصوصها**، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، سورية، 1988، ص 353.

يوضع في إناء وأما شرب (الفظ) فقد كان عبارة عن ماء الكرش يعتصر، فيشرب منه عند العوز، وخاصة في الغلوات وبه شبه الفظ الغليظ[1].

قد تدفقت الثروات وتكاثرت الأرزاق وظلّت الإبل أساس التبادل الاقتصادي في المجتمع الجاهلي، فتاجر فيهما العرب في أسواقهم بين إنتاج وابتياع وتربية وتقديمها للأضياف، وفي ذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري[2]:

لاتكسع الشول بأغبارها ❁ إنك لا تدري من الناتج

وأبب لأضيافك من رسلها ❁ فإن شرّ اللبن الوالج[1]

إنّ لا يرضى لأضيافه شرب الوالج، أي اللبن الذي حقن في الضرع، أما الإمتهار فوارد في عادات العرب ومعناه أن تقدم مائة إبل كمهر للعروس تشريفا للمرأة العربية. وبعد بزوغ شمس الإسلام استعيض بالدراهم عن الإبل[3]، وتعتبر الإبل الحمراء أصبرها في الهواجر.

ويذكر صاحب الحيوان «ما أحب أن لي بمعار يضي الكلم حمر النعم»[4] لغلاء وأصالة قدرها، ومن أبهى الإبل التي تمتاز بكثرة ألبانهما ورقة جلدها فخيرها صهبهما وحمرها فجعلوها خير الإبل[5]، وهذا دليل واضح على أن الإبل كانت لها حظوة كبيرة في فكر الإنسان الجاهلي والتي ظلّ لقرون طويلة معتقدا أنّها جالبة للحظ والرزق والكسب الكثير، بل تفنن في وصفها بأجمل الصفات ما دام أنّها تعيش في بيئةٍ واحدةٍ.

من الأساطير التي تحكي عن قبر حاتم الطائي الذي أقرى ضيفه، فقد حدثنا يحي بن عقاب عن علي ابن حرب قوله: «رأيت قبر حاتم طيء ببقة وهو أعلى جبل له واد يقال له الحابل، وإذا قدر عظيمة من بقايا قدور حجر مكفأة في ناحية من القبر من القدور التي كان يظلم فيها الناس، وعن يمين قبره أربع جواد من حجارة كلّهن

[1]- عبد المالك مرتاض، **السبع معلقات: مقاربة سيميائية أنتربولوجية لنصوصها**، ص.ص 353-354.
[2]- ابن قتيبة، **كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني**، تصحيح سالم الكرنكوي، دار النهضة الحديثة، بيروت-لبنان، ص440.
[3]- عبد المالك مرتاض، **السبع معلقات: مقاربة سيميائية أنتربولوجية لنصوصها**، ص 354.
[4]- الجاحظ، **الحيوان**، ج1، تح: عبد السلام هارون، مكتبة إحياء علوم الدين، ص 388.
[5]- الزبيدي: **تاج العروس من جواهر القاموس**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، ص 212.

صاحبة شعر منثور متحجرات على قبره كالنائمات عليه، ولـم ير مثل بياض أجسامهن، وجمال وجوهنّ مثلهنّ الجن على قبره»[1] .

لأشدّ ما تنوح الآثار الباقية على قبره. وفي النص اعتقاد قديم يقوم على عدم زوال الكرم الضيف حتى وإن كان المقري ميتا، فسوف تبقي سجاياه حية، وفاته معلقة على نواحي قبره متناثرة عن يمينه وشماله، لتكون شاهدًا حيا على نبله وفضله وكرمه، فالقدور اعتقاد بقرى الضيف النازل والجياد بما كان يقدّمه على مائدته.

ويروي المسعودي[2]: «أن رجلا يدعى أبا البختري فرّ مذعورا ذات ليلة، فلما سئل قال: خرج حاتم من قبره بالسيف وأنا أنظر حتى عقر ناقتي، فكذبه قومه ثم نظروا إلى ناقته فرأوها مجدلة لا تنبعث، فعقروها وظلّوا يأكلون من لحمها شواء وطبخا، وقالوا قرانا حاتم حيا وميتا، حتى قال شاعرهم:

أبا البختري، لأنت امرؤ ۞ ظلوم العشيرة شتّامها
أتيت بصحبك تبغي القرى ۞ حفرة صدحت هامها
أتبغي لي الذّم عند المبيت ۞ وحولك طيء وأنعامها

وإذا برجل راكب بعيرا ويقود آخر، فدفع البعير إلى أبي الخيبري زاعما أن حاتم أهداه إليه قرى. لقد ذكرت النار كثيرا في أشعار الجاهليين، فبها يطهو الطعام وتغلي القدور فوقها، وكل قد يطبخ يكون من حجارة أو حديد أو خزف تحاط حوله النؤي كحاجز يمنع عنه السبيل. وسمى العرب الحجارة التي تجعل عليها القدر بالأثافي.

قال زهير بن أبي سلمى:

أثافي سفعا في معّرس مرجل ۞ ونؤيا، كجذم الحوض، لم يتثلم

[1]- المســعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تح: محمد محي الـدين عبد الحميد، دار الكتاب اللبناني، 1966، ص470.
[2]- المرجع نفسه، ص 471.

إن العربي مُحبٌّ للحم المكلل والشحم المذاب، خاصة في سنين الجذب، فتملأ القدور باللحم، فهي كالأودية إذا ملئت. يقول الشاعر:

يقاتل جوعهم بيكلّلات ❀ من القّربي يرعبها الجميل

كأنهما عروس تستر موازاة لأصالة المراجل والقدور في صنع هالة من القداسة الاجتماعية تعلي بالمضيف وكأنّه رمز للفرح القادم، طالما أنّه يجلب لنفسه الخطوة الشرفية والذكر والسماحة والقوة المهابة وكأنّها حق وراثة فهي السحاب البارد. يقول لبيد:

وأعطوا حقوقا ضمنوها وراثة ❀ عظام الجفن والصيام الحوافل

توزعّ صاد الشمال جفانهم ❀ إذا أصبحت نجد تسوق الأفائلا

ويقول الراعي النميري:

إنّي أقسّم قدري وهي بارزة ❀ إذ كلّ قدر عروس ذات جلباب

لقد ارتبط الكرم عند العربي بتصورات اعتقادية، رآها علوية في صّورها وهو يصف معاني القرى، فصارت في خياله تأتيه من ذي الكواكب أو من جبال بتخيلّها موطنا للكرم ليسموا مكانتها، يقول راجز بني قيس:

بئس طعام الصبية السواغب ❀ كبداء جاءت من ذرى كواكب

فالكبداء الرحى العظيمة والكواكب اسم جبل عظيم. ومن هذا البيت يمكن القول إن الطعام أصبح منبوذا (بئس) لأنّه ينتمي إلى رحى صنعت من خشب الجبل (ذرى كواكب)، فهي من عالم مادي استحضرت لتحقيق منفعة غذائية، فالطبيعة النباتية حاضرة. ومن هنا يتبين أصالة الرحى ودورها في كسر وتفتيت الغذاء كالحبوب مثلا، فتصنع (النقيعة) التي تقدم للقادم من السفر، أو (الأعذار) أي طعام الختان، أو (الخرس) أي طعام الولادة، وكلّها من لحم، يقول الشاعر:

كل الطعام يشتهي ربيعه ۞ الخرس والأعذار والنقيعه

على الرغم من معرفتنا الضئيلة بنوعية الطعام المقدم إلى الأضياف "كالعهز" الذي هو نبات كان ينبت ببلاد سلّيم له أصل كأصل البردي يتركب من أوبار الإبل ودم الحلم (بفتح الحاء واللام) وتشوى ثم تبتلع اضطرارا، أو "المحدوج" وهو أنف يعمد إلى الناقة فتفصد ويؤخذ دمها في إناء فيشرب في كرش ماء عند العوزي الفلوات. يقول أعشى قيس وقد نحر ناقته حين هدأت العيون وغطش الظلام[1]:

نحرت لهم موهنًا ناقتي ۞ وعامرنا مدلّهم غطشي[1]

كما للعربي أطعمة مشهورة شهيرة تتخذ من لحوم وحبوب وألبان، ومنها السخينة وتتخذ من الدقيق دون العصيدة[2] في الدقة وفوق الحساء، وتؤكل في شدة الدّهر وغلاء وعجف المال وهي التي كانت تعير بها قريش، قال حسّان:

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها ۞ وليغلبني مغالب الغلاب

كما نجد (الجزيرة) وأول من صنعها سويد بن مرّى، وهي لحم يقطع صغار على ماء كثير، فإذا نضج ذرّ عليه دقيق، يقول الشاعر بني مخزوم:[3]

وعلمت أمل الحزير وأنتم ۞ على عدواء الدّهر صم صلاب[3]

العتيرة*:

المعروف عن العرب حبّهم للناقة وتفانيهم في خدمتها والتغني بجمالها، حتى امتلأت بها أسواقهم في الجاهلية، فكان الرجل يشتريها ويحمل نفسه على عقرها والقيام بتوزيع لحمها وشحمها على الناس المحتاجين، وهي

[1]- القرشي، **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، دار بيروت للطباعة والنشر، 1984، ص 99.
[2]- الألوسي، **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**، شرح محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ص382.
[3]- المرجع نفسه، ص 385.
* **العتيرة:** من عتر أي ذبح، والرمح العاتر هو الصلب الشديد أو المسحاة التي يعتمد عليها الحافر برجله، (ينظر: أبي هلال العسكري، **الفروق في اللغة**، تح: إحياء التراث الإسلامي، ط7، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1991، ص 290.

عادة قديمة تعرف باسم "العتيرة". ويقول صاحب صحّاح المختار: «العتيرة بوزن الذبيحة وهي شاة يذبحونها في رجب للآلهة».

إنّ الذبيحة قد تكون ناقة أو شاة وقد أبطلها الإسلام[1]، بعد ظهوره. ويقوم هذا الطقس على إدمام رأس الصنم الذي يقربون إليها عترا في الشهر المحرم. وفي ذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري:[2]

عنتا باطل، ظلما كما تعتر ۞ عن حجرة الربيض، الظباء

لقد كانت العرب تنذر نذرا فيقول أحدهم: «إن رزقني الله مائة شاة ذبحت عن كل عشر شاة، في رجب، ويسمى ذلك بالعتيرة أو الرّجبية»[3].

يفهم من خلال بيت الحارث أن العتيرة تتمثل في النذر ومعناه: إن بلغت مائة شاة -لأنّه ذكر الحجر- وهو موضع تكون فيه الغنم، و"الربيض" جماعة الغنم، ذبحت ظبيا بعد صيده، هذا إن لم يقدر القيام بنذره وضاقت نفسه وضن بغنمه، فيأخذ عددها ظباء فيذبحها في رجب مكان تلك الغنم. وهذا اعتقاد قديم آمن به الإنسان الجاهلي، بل وقام بتوريثه للمجتمع الذي عكف على الحفاظ على هذه المعتقدات ونشرها في كل القبائل العربية، لتغدو طقسا مجتمعيا وشعوريا. يرد عبد المالك مرتاض على القائلين، بأن الناقة لم تكن إلاّ للعتر فما الحاجة إلى نحرها؟ فيقول: «إنّ كلّ هذه الطقوس لم تكن إلاّ من أجل أن يبلغ تعداد إبل الرجل مائة، فلما كانت هذه الإبل هي موضوع هذه الطقوس، وهي الغاية التي كانت من أجلها تتخذ هذه الوسيلة، فقد اقتضى الأمر أن تكون هي مركز الاهتمام ومحور الغاية[4].

---

[1]- اللهم إلا ما هو معروف بعيد الأضحى، يقول عليه السلام: (لا فرع ولا عتيرة)، (ينظر: مختصر صحيح مسلم، ص 341).
[2]- التبريزي، **شرح المعلقات العشر**، ص 351.
[3]- المصدر نفسه، ص 315.
[4]- عبد المالك مرتاض، **السبع معلقات: مقاربة سيميائية أنتربولوجية لنصوصها**، ص 303.

وقد يقول قائل: إن العربي الجاهلي رجل منفعة ومصلحة ذاتية، لفائدة مرجاة. وفي شعر النمر بن تولب[1] ما يغنينا لأنّه يقدم ناقته لأضيافه، ولا يمنعه، حسنها، بل جعل الحسن سلاحا، ينفس بها ويضن[2]:

أزمان لم تأخذ إليّ سلاحها ❀ إبلي بجلّتها و لا أبكارها

إن النحر سجية العرب، فقد ينحرون دون علة تذكر، كما في بيت الرعي أو لإسكات الرضيع المعفّر أي الذي تريد أمه فطامه كما في بيت لبيد[3]:

بمغتصب من لحم بكر سمينة ❀ وقد شام ربّات العجاف المناقيا

أو في بيت آخر للشاعر نفسه:

يكبون العشار لمن أتاهم ❀ إذ لم تسكت المائة الوليدا[2]

لم تكن تقام إلاّ حين يتقص الغيث، وتجدب الأرض ويصاب الناس بالمجاعات، وأثنائها يعمد العرب إلى تقديم الأضحية عند قدم إليه البرق إرضاء له ليرسل لهم المطر المدرار وتذهب الأحقاد التي في صدور كل ذلك ضمانا لإبقاء الزرع والماء.

إنّ الطقس فولكوري اعتقادي ما دام أنّه ينتظر من إله منفعة ما، فهو يشبه "النذر" -كما شرحت- لتحقيق كفاية معينة وإبعادا لشؤم. وتظل الإبل هي الأضحية في العتر نظرا لاعتقاداتهم الأسطورية فيهما. يقول عتيبة بن مرداس[5] مفتخرا بالإبل وواصفا مكانتها بأنّها كريمة، ولكنّها تقدم عن الحيوانات الأخرى[6]:

ما أتقي الساق التي تتقي بها ❀ إذا ما تفادي الراتكات من العقر[6]

[1]- هو من عكل وكان شاعرا جوادا، وسمي الكيّس لحسن شعره، وهو جاهلي أدرك الإسلام وأسلم ويقول في بيت له مخاطبا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.
[2]- جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، جامعة بغداد، العراق، ط2، 1993، ص 198.
[3]- بن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ص 195.
[4]- المرجع نفسه، ص 304.
[5]- جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، ص 212.
[6]- ابن قتيبة، **كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني**، ص 391.

إنّها رؤية لها مكانتها في حياة العربي طالما أنّها يتحدث دوما عن ناقته ويحاول أن يتقي عقرها، ولكنّه يحاول عبثا فالعقر مزية العرب، ضمن حياة تقوم على فضيلة الكرم والضيافة وتحقيق ما يُسمى بالقبيلة العربية التي تفاخر بها العرب في شعرهم ونثرهم، مخلدين آثارهم، وآثار آبائهم الأولين.

الفصل الثاني:

الجانب الخلقي عند شعراء المعلقات العشر (دراسة تطبيقية)

المبحث الأول: الأخلاق عند شعراء المعلّقات العشر

1/– في ظلّ الأخلاق يتحد التصوّر عند شعراء المعلّقات العشر:

لاشكّ أنّ الأخلاق هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم ولهذا نرى الباحثين والفلاسفة قد اتّفقت كلمتهم على ضرورتها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع في جملته[1].

إنّ تلك الأخلاق الفطرية هي التي جعلت من الإنسان العربيّ إنسانًا متفاعلاً مع تلك العوامل الجغرافية المختلفة، فلقد أكرم ضيفه وقراه عندما تغيّر نظام العامل الجغرافي وتغيّر من حالة الدفء والحرّ إلى حالة البرد والقرّ، لقد دفعه كرم طبعه أن يكون مضيافًا، بينما من كان طبعه البخل فلن يؤثّر فيه لا بردٌ ولا حرٌّ لأنّه بخيلٌ بطبعه، وقد كان العربي الجاهلي متكيّفًا أمام متغيّرات العامل الجغرافي التي عزّزت لديه قيمًا وأخلاقًا موجودةً وفطريةً فيه كما احتاج ذلك الإنسان إلى صنع أنظمة أخلاقية يقف بها صامدًا أمام جميع المؤثّرات الجغرافية، ولكن ما يُمكن أن نقوله إنّ قيم وأخلاقيات العربي الجاهلي كانت بمثابة المواد الخام انصهر في بوتقة العوامل الجغرافية الصعبة ومن قمّ نظّمتها حاجة الإنسان الجاهلي، بحيث أصبحت دستورًا وحيد لا يصدر العربي الجاهلي إلاّ عنه حتّى قالوا: «فلان تأبى طباعه، وفلان أبت شيمته وكرمه أن يفعل كذا».

من كلّ ما تقدّم يظهر لنا أنّ وحدة التصور عند شعراء الجاهلية في أشعارهم ترجع إلى وحدة تصوّرهم الخلقي فبالأخلاق يعيشون وعنها يصدرون، ونكرّر على الأسماع دائمًا أنّ الشّعر ما وُجِدَ في الأصل إلاّ للتغنّي بمكارم الأخلاق والشيم، وهذا يدفعنا إلى القول:

«**وفي ظلّ الأخلاق يتّحد التصوّر عند شعراء الجاهلية**» والذي يُؤَكّد هذه المقولة هو «أنّ الحاسات الخُلُقية انبعاث داخلي فطري، وأنّ القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها»، وأيضًا قوله تعالى:

---

[1]- عبد الفتاح البركاوي، **دلالة السياق**، ص 39.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝﴾ (سورة الشمس، الآية رقم: 07-08)، والواقع أنّ الإنسان العادي يستطيع أن يُميّز إلى حدٍّ ما، وفي كلّ ما يقوم به من أنواع السلوك، بين ما هو خير وما هو شرّ، وبين ما هو "محايد" لا ينفع ولا يضرّ، وذلك مثلما يميّز في عالم المحسوس بين "الجميل" و"القبيح"، و"المجرد" من كل تعبير، ولا يقتصر الأمر فقط على "المعرفة" بل إنّ مظهر الفعل الحسن أو الفعل القبيح يُثير فينا مشاعر جدُّ مختلفة، فنمتدح بعض من أنواع السلوك، ونستهجن بعضها الآخر، غير أنّ هذا القانون الأخلاقي فينا ناقص وغير كافٍ، ليس فقط لأنّ العادة، والوراثة، وأثر البيئة، والمصالح البشرية تفسد نوازعنا التلقائية، وتلقي أنواعًا من الظلال على نور بصيرتنا الفطرية وليس فقط لأنّ شواغل الحياة في الدنيا تستوعب الجزء الأكبر من نشاطنا الواعي؛ بل إنّ ممارسة الأخلاق في أحسن الظروف الملائمة تواجه صعوبة أخرى رئيسية: وهي أنّ الضمير إذا اقتصر على مصادره الفطرية وحدها، وجد نفسه عاجزًا في غالب الأحيان عن أن يقدّم في جميع الظروف "قاعدة" ذات طابع عام تستأثر باعتراف الجميع، فإذا تجاوزنا حدًّا معيّنًا نجد أنّ "اليقين" الأخلاقي قد ترك مكانه للاحتمالات والتردّد والمتاهات وهذا هو السبب الذي من أجله بعث الله الناس من حينٍ لآخر نفوسًا متميّزةً ملهمةً بالوحي الربّاني، ونستطيع على مدى التاريخ الإنساني أن نضطلع برسالة إيقاظ الضمائر، وإزالة الغشاوة على النور الفطري الذي أودعه الله فينا، وهذه النفوس المصطفاة بتعاليمها الدقيقة التي تلقنها للناس تعمل على حصر الاختلافات بينهم في أضيق نطاق ممكن، وخاصةً بالنسبة لتقدير الحكم الأخلاقي، وهكذا يجد النور الفطري، ما يُكمّلُه ويُقوِّيه من وحي النور الإلهي "نور على نور"[1].

إذن الأخلاق نشاط إنساني لا يقتصر فقط على مصدره الفطري وحده فإذا كان الأمرُ كذلك فكيف نُقدّر المجالات التي تمثّل في مجملها ذلك النشاط في المعلّقات العشر؟

[1]- محمد عبد الله درّاز، **دستور الأخلاق في القرآن**، ص 126.

2/– الأخلاق نشاط إنساني له مجالاته عند شعراء المعلّقات:

ما دامت الأخلاق تتدّخل في كلّ نشاط إنساني فإنّ العلاقة تكون «قوية بين الشّعر والأخلاق فكلاهما له تأثير على تقويم النفس وكلاهما يحاول أن يسمو بالفعل إلى درجة من المثالية»[1].

ولو أردنا أن نضع خطابًا خلقيًا منظمًا نتتبّع من خلاله أخلاق شعراء المعلّقات العشر في معلّقاتهم فلابدّ أن نبحث في إطار الفعل الإنساني العربي الجاهلي والذي سينحصر في الفعل الإنساني كما ينقله لنا شعراء المعلّقات ونأخذ من بينهم "**امرؤ القيس، طرفة بن عبد، زهير بن أبي سلمى، لبيد بن ربيعة العامري، كنموذج في هذه الدراسة**" ولقد وجدنا أنّ الفعل الإنساني العربي الجاهلي والذي تقوى فيه العلاقة بين الشّعر والأخلاق لا يخرج عن خمسة أمور تشكّل في مجملها النشاط العملي للإنسان العربي الجاهلي عامةً وشعراء المعلّقات العشر على وجه الخصوص: "**امرؤ القيس، طرفة بن عبد، زهير بن أبي سلمى، لبيد بن ربيعة العامري**" وتلك الأمور هي:

- **البيئة الطبيعية وظواهرها:**

إقامة، ترحال، أطلال، ليل، سيل، قحط وجذب، نعمة وخصب.

- **الإنسان:**

قريب، صاحب، عدو، ضيف، إضافةً إلى المراحل العمرية (طفولة، فتوة شباب، شيخوخة).

- **الحيوان:**

راحلة، صيد، وحش، قرى، متاع وزينة، ركوبة وتسلية.

[1]- محمد بن مريسي الحارثي، **الاتّجاه الأخلاقي في النقد العربي حتّى نهاية القرن السابع الهجري**، ص 08.

- **المجتمع بما فيه من أعراف ومعتقدات وأخلاق.**

- **الزمن:**

حياة، موت، فقر، غنى، انتهاب اللّات، الحروب والأيّام، التجارب والخبرات.

المبحث الثاني: أمهات الأخلاق والفضائل النفسية في بعض من المعلّقات العشر "امرؤ القيس، طرفة بن عبد، زهير بن أبي سلمى، لبيد بن ربيعة العامري":

قبل الشروع في البحث عن مظاهر أمهات الفضائل النفسية في بعض من المعلّقات العشر وما يُتمّمها من متمّمات عرضية أو جسمية نرى أنّ الوحدة الشعرية التي تجعل من الموضوع كُلاً واحدًا لا تتعارض مع نصوص المعلّقات خاصة إذا عرفنا بأنّ نصوص المعلّقات تربط بين المواقف التي تبدو مختلفة وكلّ منها مستقلٌّ عن الآخر ظاهرة معيّنة واحدة تجعل من تلك الموضوعات كلاً كظاهرة الحزن في معلّقة امرئ القيس، وظاهرة حب السلام في معلّقة زهير، وكلّ معلّقة لها ظاهرة مسيطرة من أوّل نص المعلّقة إلى آخره كما سنتبيّن ذلك.

إنّ ظاهرة الحزن مثلاً في معلّقة امرئ القيس كانت "الطابع الأصيل الذي يشدّ معاني المعلّقة بعضها إلى بعض"[1].

كما أنّنا نعرف أنّ القصيدة كانت «متأثّرةً في نظمها بواقع الحياة العربية فهي تتألّف من عدّة أغراض يربط بينها خيط دقيق يستعيره الشّاعر من تجربته في مجرى حياته»[2]، وإنّ ذلك الخيط النفسي تمثّله الظاهرة النفسية المسيطرة على النص فتُلبسه طابعًا أصيلاً يشدّ معاني المعلّقة بعضها إلى بعض كما تقدّم ولو استعدنا المراحل التي يمرّ خلالها الإنتاج الفنّي لوجدنا أنّ ذلك الخيط النفسي أو الظاهرة المسيطرة لا تعدم أن تتلوّن بأخلاق القائل لأنّ المنبع النفسي الذي تصدره منه الظواهر النفسية والأخلاق النفسية واحد، بل قد يتمثّل ذلك الخيط النفسي في الخلق ذاته.

[1]- بكري الشيخ أمين، **المعلقات السبع**، ص 63.
[2]- رشدي علي حسن، **شعراء الطبيعة في العصر العباسين**، ج2، ص 17.

ونحن هنا سوف نتّخذ من الأصول الأربعة للأخلاق والتي تمثّل أمّهات الفضائل النفسية (والفضيلة كما عرفنا وسط محمود طرفاه مذمومان ولكلّ منهم متمّم أو جسمي) إطارًا كاشفًا عن أخلاق الشّعراء العشرة من خلال نصوص معلّقاتهم.

1/– معلّقة امرئ القيس:

معلقة امرئ القيس قصيدة لامية على البحر الطويل يصل عدد أبياتها عند بعض أهل العلم إلى اثنين وتسعين بيتًا، وذلك إيمانًا بأنّ أبيات المعلقة كلٌّ لا يتجزّأ تجمعها ظاهرة واحدة هي الظاهرة الحزن المسيطرة على النص من أوله إلى آخره، وهذه الظاهرة (خلق كبير في المعلقة) كشفت لنا عن كثير من أخلاق الشّاعر تعتبر اعترافًا صريحًا في ساعة العسرة، حيث الفرح الشديد أو الحزن الشديد يكشف بصراحة عن الطبع الحقيقي للإنسان.

وسنجعل الأصول الأربعة للفضائل (الإطار الخلفي) بمثابة سؤال استنطاقي كبير للشاعر الذي ينوب عنه هنا نص المعلقة فكأنّه حاضر بيننا وسألناه هذا السؤال: العقل والشجاعة والعفة والعدل أصول أربعة لفضائل الأخلاق وهي تمثل الوسط المحمود ذا الطرفين الخُلُقيين المرذولين فأين مقام معلقة امرئ القيس من ذلك؟

لقد سلطنا أضواء أصول الأخلاق الأربعة على نص معلقة امرئ القيس لتحديد الإطار الخلقي في المعلقة إلا أنّ الوسط المحمود الذي يمثل أمهات الفضائل الربع: (العقل–الشجاعة –العفة –العدل) كانت مظاهر قليلة جدا بينما كانت مظاهر الطرفين المرذولين لكل فضيلة من الفضائل الأربع كثيرة جدا، وهذا ليس بمستغرب من إنسان كامرئ القيس عاش جُلّ حياته لاهيًا غَزِلاً وغارقًا في الملذّات[1].

العقل (الحكمة): إنّ العقل هو حالة للنفس بها يُدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.

وقد اتّخذ هذا الخلق في معلّقة امرئ القيس الإطاري الآتي من خلال المظاهر النفسية المحمودة وما يُتمّمها من مظاهر عرضية، وتتمثّل في الآتي:

[1]- غازي طليمات، عرفان الأشقر، **الأدب الجاهلي**، ص 254.

1-1/ ثقابة المعرفة:

وقد عدّه قدامة بن جعفر من أقسام العقل كما مرّ بنا، والنقابة تعني الحذق، تقول: والثقابة تعني الحذق تقول: حذق فلان الشيء حذقًا «أوغل في ممارسته حتّى مهر فيه»[1]، ونتيجة لهذا الإيغال تأصّل الحذق حتّى أصبح منه خلقًا ومن صور هذه الظاهرة في معلّقة امرئ القيس:

أ/- حبّ التبكير في الخروج إلى الصيد: وهذه الصورة تتضمن صورا خلقية عدّها ابن طباطبا من الأخلاق المحمودة و منها «علو الهمة و الجد و التشمير و العزم و الصبر و التجارب"[2]، وكل هذه الصور يشملها قول امرئ القيس:

وقد أغتدي و الطير في وكناتها ۞ بمنجردٍ قيد الأوابد هيكلِ

فالبيت السابق يتضمن:

أ- الدافع الذاتي من الشاعر إلى الصيد وهذا يتطلب منه التحلي بالصبر وعلو الهمة والجد والتشمير والعزم واختيار الوقت المناسب للصيد، كيف لا والحال يتطلب منه التبكير ومسابقة الطير في الحصول على الرزق، (وقد أغتدي و الطير في وكناتها).

ب- التجربة العميقة بعملية الصيد دعته إلى استخدام الوسيلة المناسبة المتمثلة في الفرس الضخم النشيط (بمنجرد قيد الأوابد هيكل).

والمتممات الجسمية أو العرضية للمظهر الخلقي السابق تتمثل في قول امرئ القيس في الأبيات التي تلي البيت السابق مباشرة:

---

[1]- **المعجم الوسيط**، ج1، ص 163.
[2]- ابن طباطبا، **عيار الشعر**، ص18.

مكر مفر مقبل مدبر معاً ❀ كجملود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللّبدُ عن حال متنه ❀ كما زلت الصفواءُ بالمتزلِ

على الذبل جياش كأن اهتزامه ❀ إذا جاش فيه حميه غلي مرجل

مسح إذ ما السابحات على الونى ❀ أثرن الغبار بالكديد المركل

يُزل الغلام الخِفّ على صهواته ❀ ويلوي بأثواب العنيف المثقّل

درير كخذروف الوليد أمرّه ❀ تتابع كفّيه بخيط موصل

وقوله:

كان دماء الهاديات بنحره ❀ عصارة حناء بشيب مرجل

فعن لنا سرب كأن نعاجه ❀ عذارى دوارٍ في ملاء مذيلِ

فأدبرن كالجزع المفصل بينه ❀ بجيد معم في العشيرة مخولِ

فألحقنا بالهاديات، و دونه ❀ جوارحها في صرة لم تزيلِ

فعادى عداء بين ثور و نعجة ❀ دراكًا، و لم ينضح بماء فيغسل

فظل طهات اللحم ما بين منضج ❀ صفيف شواء أو قدير معجّلٍ

1-2/ الحياء:

وهو سلوك لم يكن صادراً من الشاعر ولم يكن يتصف به لكنه يؤمن بفضيلته وقد عده قدامة بم جعفر من أقسام وهو معلقة في امرئ القيس صادر من المرأة،و الحياء في المرأة خلق محبب إلى الرجال وقد أحبه امرؤ القيس في معشوقته التي غلبها الحياء في بعض المواقف لأنّه طبع فيها رغم غوايته لها و موافقتها على الخروج معه.

1-3/ البيان:

وقد عده قدامة بن جعفر من أقسام العقل وإنما عُدَّ من العقل والحكمة لما لصاحبه من قدرة على المجادلة وإيراد الحجة والدليل والبرهان وعُدَّ من العقل أيضاً لقدرة الشاعر على صوغ «الكلام الذي يكشف عن حقيقة الحال أو يحمل في طياته بلاغاً»[1] وقد كان البيان عند الشاعر العربي الجاهلي طبعاً فيه يترجم سلوكه ابن قد اتخذ بعضهم من قدرته على البيان مصدراً للتكسب بالشعر فأصبح هذا منه خلقاً نفعياً كما هو حال النابغة والأعشى ولبيد، وقد كان لدى امرئ القيس قدرة على البيان بمعنييه السابقين إلا إنه وظف البيان بمعناه الأول توظيفاً خلقياً مذموماً وذلك أنه وظفه في جانب الشر من لهو ومجون و إسراف في الملذات وخاصة مع النساء.

1-4/ الوفاء:

وإنما أدرجنا خلق الوفاء وجعلناه مظهراً من مظاهر الشجاعة عند امرئ القيس لأنّه «يكون بإتمام ما وعد به المرء، فإن وعد بشيء وفي به ولا ينبغي أن يتراجع أبداً مهما أحاطت به الظروف»[2]، ونحن نعلم أن ظاهرة الحزن هي المسيطرة على نفس امرئ القيس في هذه المعلقة «فإذا كان الرجل يبالغ في غزله ويمعن في فحشه ويسرف في مجاهرته فإنما يمارس نوعاً من التعويض عما يموج في أعماقه من ضعف أو عجز لا تريده النساء فيه فإذا ما جاء وصف الليل أو الفرس أو المطر رأينا جانباً من مأساته مع الزمن، ورغبته في الخلاص مما حاق به، وألمّ بقبيلته فهم متأمل مع الليل، وراغب في الانتصار مع الفرس ومحب للطبيعة و القوة و الحياة مع البرق و السيل».[3]

[1] - قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، ص 67.
[2] - عبد الخالق بن مساعدة الزهراني، **العقيق**، مج 13، ع25، 26، جمادى الأول، 1420هـ، ص 46.
[3]- محمد السيد الديب، **دراسات في الأدب الجاهلي**، ص 143.

2/- معلقة زهير بن أبي سلمى:

عندما نقف مع معلقة زهير هذه فإننا نقف مع رجل سياسي مفكرر يدبر الأمور و يحاول أن يصلح منها ما عطب،و لا ريب في ذلك فزهير بن أبي سلمى بما عرف عنه من رجاحة عقل و خيره عميقة بالحياة بمختلف ظروفها، وحبه للأمن و السلام يعد من أعلام الفكر العربي فهو الشاعر المجرب و السياسي المحنك.

وقد تميز زهير بذلك الميل الفطري للسلم والسلام فسجل بذلك «شذوذاً على ذوق الجاهلين وأشعارهم التي تدوي بفكرة الأخذ بالثأر والترامي على الحرب الفراش على النار»،[1] ومن يمعن النظر في معلقة زهير فإنه سيجد أن الجانب الخلقي العقلي هو الرابط النفسي الخفي الذي يربط أجزاء معلقته هذه، بغض النظر عما وقع فيها من خلط الرواة من تقديم بين على آخر أو زيادة في عدد الأبيات بين رواية وأخرى، فيكون منها وحدة عضوية لا تقبل التفكيك أو التجزئة، وستلاحظ أننا وإن كنا حاولنا أن نجعل لكل أصل حتى كأن الأصول الأخلاقية الأربعة إطاراً خاصّاً في المعلقة وندرج تحته مظاهره المتعددة إلا أن فضيلة الجانب العقلي بمظاهرها وصورها الكثيرة تظل هي المسيطرة على جو المعلقة من أولها إلى آخرها حتى كأن الأصول الأخلاقية الثلاثة الأخرى (الشجاعة، العدل، العفة) وما يندرج تحت كل منها من مظاهر تكاد أن تكون هي أيضاً مظاهر رئيسة أو كبيرة لفضيلة العقل، كما أن من يدقق النظر أيضا في معلقة زهير يجده لم يصف الراحلة الخاصة به من ناقة أو الفرس أو نحوهما على عادة الشعراء الجاهلين وإنما كان جل حديثه في هذا المضمار يتمثل في وصف ظعن المحبوبة وهو أيضا وصف من نوع خاص، وكأن زهير بذلك ترك قناة من قنوات الاتصال بمتليقه لم يرها صالحة لنقل غرضه الأخلاقي الأسمى وهو الدعوة إلى السلام فهو لم يستعرض مظاهر الشجاعة التي من الممكن أن تقوض قواعد السلام و الأمن الذي يدعو إليه وإنما ترك الراحلة و «أعرض عنها فلم يصفها ساكنة ولا متحركة ولم يمض في هذه التشبيهات التي تعود الشعراء أن يمضوا فيها لأنه عن كل هذا مشغول، مشغول لا أقول بمدح صاحبيه اللذين

[1]- شوقي ضيف، **العصر الجاهلي**، ص 307.

مدحهما بل الدعوة إلى السلم التي يحبها، و يكلف بها، ويريد أن يحببها إلى الناس، و يتخذ مدح صاحبيه هذين وسيلة إلى ما يريد»[1].

العقل:

سبق أن ذكرنا أن هذه الفضيلة الخلقية في معلقة زهير هي الرابط النفسي القوي الذي يشد أجزاء المعلقة بعضها إلى بعض «فمعلقته ببساطة تقدم لنا نظرة شاملة في فلسفة الواقع الاجتماعي المتجدد في حربه وسلمه وفي خيره وشره، وما يطرأ عليه من أحوال لا تعرف طعم الاستقرار والأمن إلا إذا تغلبت فيها رجاحة العقل على جموح العاطفة و النصر الخير على الشر»[2].

و لعلنا أول ما نستشعر ذلك في تلك الصورة الحسية التي مهد بها زهير لغرضه و أعني بذلك صورة الموكب الآمنة لرحلة المحبوبة و التي يتكشف معها أول مظهر عقلي في معلقة ألا زهير و هو:

1-2/ السياسة:

ساس الأمور: "دبرها و قام بإصلاحها"[3]، والسياسة من أقسام العقل كما عدّها قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر[4]، ولعل هذا المظهر العقلي يكون اسما جامعا لكل صور الإصلاح والدعوة إلى السلم والسلام التي دعا إليها زهير في معلقته و من صور هذا المظهر:

أ/- **الدعوة إلى التفكير و التذكر**: و ذلك حين يقول زهير:

تبصر خليلي هل ترى من ضعائن ❀ تحملن بالعلياء من فوق جر ثم

[1]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ص 75.
[2]- محمد صادق حسن عبد الله، **المعاني المتجددة في الشعر الجاهلي**، ص 163.
[3]- المعجم الوسيط، ج462/1.
[4]- قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، ص68.

جعلن القنان عن يمين و حزنه ❁ و كم بالقنان من محل و محرم

و عالين أنماطا عتاقا و كلة ❁ وراد الحواشي لونها لون عندم

ظهرن من السوبان ثم جزعنه ❁ على كل قيني قشيب و مفأم

و وركن في السوبان يعلون متنه ❁ عليهن دل الناعم المتنعم

كأن فتات العهن في كل منزل ❁ نزلن به حب الفنا لم يحطم

بكرن بكورا و استحرن بسحرة ❁ فهن و وادي الرس كاليد في الفم

فلما وردن الماء زرقا جمامه ❁ وضعن عصي الحاضر المتخيم

تذكرني الأحلام ليلى و من تطف ❁ عليه خيالات الأحبة يحلم

و فيهن ملهى للطيف و منظر ❁ أنيق لعين الناظر المتوسم

إنها صورة حسية ساذجة يمهد بها زهير لغرضه الأساس كما أسلفنا – الدعوة إلى الأمن-.

ونحن نقول: أن ابن شرف في تفسيره الحرفي لهذا البيت لو أنه دقق في قراءته لوجد في النص ما يغالط فهمه و يرجعه إلى جادة الصواب و أعني أنه لم يقرأ قول زهير:

و من هاب أسباب المنايا ينلنه ❁ و إن يرق أسباب السماء بسلم

إن زهيرا في هذا البيت يذعن للموت بل يقرر أن من خاف المنية و ابتعد عن أسبابها فلا بد أن تنال، و لم ينفعه تشبته بطرقها و وسائلها و لو حاول أن يصعد إلى السماء فرارا منهاه أبعد هذا البيت يبقى مجال للشك بأن زهير غلط في وصف المنايا؟

2-2/ الحكمة:

رأى زهير أن من العقل سوق الحكم في معلقته لما تحمله من تجارب عميقة في الحياة، سوف تساهم في دفع عجلة الإصلاح الذي ينشده.

نعم لقد أراد زهير «أن يتم المشروع بنجاح عظيم وينفذ تنفيذا صحيحا كاملا عن رضا تام واقتناع حقيقي من جميع الأطراف فساق لهم حكما تساعد على ذلك»[1]، و من تلك الحكم:

أ/- من يرفض الصلح فسوف يكتوي بنار الحرب:

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه ❀ يطيع العوالي ركبت كل لهذم

ب/- الموفون بالعهود محمودون مكرمون و الميالون للخير يحبون السلام:

ومن يوف لا يذمم، ومن يهد قلبه ❀ إلى مطمئن البر لا يتجمجم

ج/- الحذر لا ينجي من القدر:

و من هاب أسباب المنايا ينلنه ❀ و إن يرق أسباب السماء بسلم

د/- البخيل بالفضل على أهله منبوذ و مذموم:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ❀ على قومه يستغن عنه و يذمم

ه/- لا عز للمرء إلا بقومه:

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ❀ ومن لا يكرم نفسه ولا يكرم

[1]- علي الجندي، **في تاريخ الأدب العربي**، ص304.

وعلى مستوى آخر يمكن أن ينظر إليها بوصفها الفضيلة التي تمكن الشاعر أو البطل من أن يتوقع الخطر والخسارة و التعرض للموت دون إجفال أو ذعر، أو توهم[1]، لقد أدرك زهير بعقله فضيلة الحلم فحاول أن يضع لها إطارا محددا تعرف به من بين جميع الفضائل فجعل لها وقتا لا تأتي في غيره فإذا فات الإنسان لم يمكنه تعويضه:

و إن سفاه الشيخ لا حلم بعده ۞ و إن الفتى بعد السفاهة يحلم

فالإنسان إذا كبر وشاخ، وهو سفيه مصر على أعماله الفاسدة فلا أمل في إصلاحه لأنه لا يوجد بعد الكبر والشيخوخة إلا الموت، و أما الإنسان الذي لا يزال في ريعان شبابه فيرجى صلاحه ما لم يكبر.

2–3/ المعرفة:

والمعرفة من أقسام العقل كما يذكر قدامة بن جعفر و غيره، و «ويتجلى هذا المظهر في الحس التاريخي لدى زهير حين يقسم بالكعبة فيسجل من خلال ذلك القسم دور قريش و جرهم في بناء الكعبة، و تبني السقاية والرفادة فيها»[2].

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ۞ رجال بنوه من قريش وجرهم

ولا شك أن رجلا حكيما مجربا كزهير لا يخلوا من المعرفة بالتاريخ، و ما ساق لنا تلك المعارف الكثيرة في مظهر الحكمة إلا لأنه رجل ذو معرفة و خبرة بالناس و الحياة.

2–4/ الشجاعة:

تكاد لوحة هذه الفضيلة أن تختفي – إلا ما ندر– في معلقة زهير و ربما ذلك يمثل استجابة صريحة لطبيعة دوافعه الحقيقية و يتبع ذلك أيضا مظهر الكرم كمظهر من مظاهر الشجاعة فالرجل لم يطمح في نيل رضا

[1]- سوزان بنيكني ستيتكيفيتش، **أدب السياسة و سياسة الأدب**، ص20.
[2]- عبد الله التطاوي، **أشكال الصراع في القصيدة العربية**، ص62.

ممدوحيه فهو في غنى عن باب "إيجاب الحقوق" لنفسه، و مشغول بإيجابها لغيره، و بهذا يكون زهير قد تزعم مدرسة المدح غير المتكسب خاصة إذا عرفنا أنه كان سيدا من سادات قومه كثير المال، و لم يكن ثراؤه طريفا مستحدثا بل ناله عن أصالة و وراثة عريقة فقد عرف خاله بشامة بن الغدير بكثرة أمواله و قد ورث زهير الثراء مصحوبا بتلك السيادة حتى أصبح أميرا في عشيرته لا ينظر منه مدح بغية العطاء أو الاستجداء.

أقدم و هو قوي في قادر الإقدام، هو أسد قذّف، يقذف نفسه و يقذفه قومه كلما جد الجد، لم يقلم أضافره و أمن، لا يهاب حربا، و لا يذعن لسلم، لا يرضى من ظالم ظلما، و لا يطمئن إذا مسه الظلم، حتى يعاقب الظالم فإن لم يظلمه أحد فهو لا يتحرج من أن يظلم الناس.[1]

2-5/ الكرم:

إن من أعلى درجات و مظاهر الشجاعة أن يقدم الإنسان نفسه أو يجود بأغلى ما عنده في سبيل إقامة الصلح و الأمن و السلام و هذا ما نلمسه في معلقة زهير بن أبي سلمى حيث نجد من صور ذلك الكرم:

أ/- دم البخل:

و من بك ذا فضل فيبخل بفضله ❁ على قومه يستغن عنه ويذمم

أي: من كان هنده مال فيمنعه عشيرته و أهله استحق الذم و القدح و لا حاجة لهم فيه، و يكون وجوده بينهم كالعدم.

ب/- حمل المغامر:

و أصبح يجري فيهم من تلادكم ❁ مغانم شتى من إفال مزنم

[1]- طه حسين، **حديث الأربعاء**، ج1، ص 87.

تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ❁ ينجمها من ليس فيها بمجرم

ينجمها قوم لقوم غرامة ❁ ولم يهر يقوا بينهم ملء محجم

أي: شجاعة أكبر من شجاعة إنسان ينذر نفسه و ماله في سبيل إصلاح ذات البين فيجود و يعطي من ماله من اجل إحلال الأمن و السلام بين الناس؟ إن هذا –حقا– قمة الشجاعة و الكرم

ج/– المنعة و حماية المستجير:

صورة أخرى من صور الكرم الشجاع كيف لا؟ والشجاعة تحتاج إلى أسباب المنعة والقوة من بذل مال وحماية مستجير و نجدة مستنجد.

2–6/ السماحة:

و هي من أقسام العدل عند قدامه بن جعفر[1]، و مظهر من مظاهره و إنما كانت كذلك لأنها تعني: البذل و لعطاء في العسر و اليسر عن الكرم و سخاء، و في ذلك يقول زهير:

تداركتما عبسا و ذبيان بعدما ❁ تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

و قد قلتما: إن ندرك السلم واسعا ❁ بمال ومعروف من القول نسلم

حيث أشاد زهير بسماحة ممدوحيه بتلافيهما قبيلتي عبس و ذبيان بعد أن أفنى بعضهم بعضا بالسيف و كان من سماحتهما و كرمهما أنهما قالا: إن أمكن إبرام الصلح بين المتنازعين بذل المال و القول الحسن و نسلم من الحرب فعلنا ذلك.

[1]- طه حسين، **حديث الأربعاء**، ج1، ص 68.

2-7/ الجوار:

وهو الطرف المرذول لفضيلة العدل ويتمثل هذا المظهر في سآمة زهير وملالته من الحياة و يظهر هذا في قوله:

سئمت تكاليف الحياة و من يعش ❀ ثمانين حولا –لا أبا لك– يسأم

لقد جار على نفسه عندما وصل بها إلى هذه الدرجة من الملالة و السآمة و يبدو لي أن سبب ذلك لا يعود فقط إلى طول العمر كما ذكر زهير بل يعود السبب إلى تلك الظروف الحرجة التي عانى منها زهير و قبيلته جراء الحرب التي استمرت أربعين عاماً.

و نحن نعلم أن خير الناس من طال عمره و حسن عمله و هو مقياس إسلامي لكنه ينطبق على زهير باعتباره من الحنفاء في الجاهلية أو على أقل تقدير من العقلاء، و من الثمانين ليست بالعمر المرذول فهناك أناس تصل أعمارهم إلى مائة سنة أو أكثر و مع ذلك نراهم راضين مسرورين يرفلون في ثياب الأمل و العافية.

3/- معلقة طرفة بن العبد:

كنت أود أن أجعل البحث في الإطار الخلقي في المعلقات العشر و تحديده عن طريق مجالات النشاط الخلقي الخمسة السالفة الذكر فأتناول المعلقة مرتبة من أولها إلى أخرها و إلا أنني رأيت أن المظاهر الخلقية المنتمي بعضها إلى العقل و بعضها إلى الشجاعة و بعضها الآخر إلى العدل و آخر إلى العفة متناثرة في أبيات المعلقة الواحدة و متنوعة تنوعا كبيرا فليت أن أتخذ من أصول الفضائل الأربعة أطرا أخلاقية يندرج تحت كل منها مظاهره الخلقية الخاصة به على أن تكون بترتيب منطقي واحد كما كان عليه الحال في معلقة امرئ القيس و ما دام الأمر كذلك فلنبحث عن الإطار الخلقي في معلقة طرفة بن العبد[1].

العقل:

كان الجاهليون على ما فيهم من حمية يولون العقل مكانة بارزة و يزرون بالجهل و من كان في شبابه أحمق نزقا مغلوبا بحرارة الرأس فالدهر كفيل برده إلى الوقار.

و عندما ننظر إلى هذا الأصل الخلقي في معلقة الشاب الفتي طرفة بن العبد نجده يتخذ المظاهر الآتية:

3-1/ البر:

إن البر هو الجامع الروحي الذي كان يجمع بين أفراد الأسرة وأفراد القبيلة في المجتمع الجاهلي وإذا كان طرفة قد سلك في حياته وشعره مسلكا شخصيا بعيدا عما توجبه البيئة الجاهلية فإنه لم يستطع أن يتخلص من هذا المظهر الخلقي العقلي إذا استطاع أن يدرك بصواب عقله مدى أهمية تلك الرابطة الاجتماعية فما كان أمامه إلا أن يستجيب لنداء العقل فقال و هو يتألم في نفسه من أهله و ابن عمه خاصة:

---

[1]- محمد على طه الدرة، **فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر بطوال**، ج1، ص125، 129.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ۞ على المرء من وقع الحسام المهند

فذرني و خلقي، إنني لك شاكر ۞ و لو حل بيتي نائيا عن ضرغ

ومما قاله طرفة من معلقته في هذا المظهر:

لعمرك، ما أمري علي بغمة ۞ نهاري، و لا ليلي على بسرمد

ويوم حبست النفس عند عراكه ۞ حفاظا على عوراته و التهدد

على موطن يخشى الفتى عند الردى ۞ متي تعترك فيه الفراض ترعد

وإنما اندرج هذا المظهر الخلقي تحت فضيلة العقل لأننا نجد فيه أن طرفة بن العبد لم يخرج عن طور عقله عندما منعه أعمامه إرث أبيه إضافة إلى ما كان يلقاه من أخيه معبد من احتقار واستهزاء وما كان عليه ابن عمه مالك حيث كان يلومه ويحرض عليه فاستطاع طرفة تحت وطأة هذا كله أن يستجيب لنداء عقله الحكيم الذي عزز فيه هذا المظهر الخلقي الكريم (البر) رغم الظروف القاسية.

إن هذا البر بالأقارب قاد طرفة إلى مظهر خلقي آخر من مظاهر العقل حيث استطاع طرفة بعقله أن يدرك أن مشيئة العبد فهو الرازق المانع وبهذا يكون طرفة قد كشف لنا عن ذلك المظهر الخلقي الحميد ألا وهو العلم.

3-2/ **العــلم**:

فقد علم طرفة بجودة ذهنه وثقافة رأيه وحسن ظنه أن الغنى والفقر بيد الله وحده يهب لمن يشاء ويمنع الرزق عمن يشاء:

فلــو شـــاء ربي كنت قيس بن خالد ۞ ولــو شـــاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصـــبحت ذا مـــال كثير، وزارني ۞ بنــــون كــرام ســـادة لمســـود

وقد وهب العقلُ طرفةَ وعياً كاملاً وواقعية ناضجة وقدرة على محاكمة الأمور وتلخيص التجارب في مظهر خلقي حميد آخر وهو:

3-3/ الحــكمة:

وقد أورد طرفة في معلقته حكماً متنوعة تدور في مجملها حول فلسفة الحياة والموت:

أرى قـــبر نحـــام بخـــيل بمالـــه ❀ كقـــبر غـــوي في الـــبطالة مفســـد

ترى جـــثوتين مـــن تـــراب عليهما ❀ صـــفائح صـــم مـــن صـــفيح منضد

أرى المـــوت يعــتام الكرام، ويصطفي ❀ عقـــيلة مـــال الفـــاحش المتشـــدد

أرى المـــوت يعــتاد الـنفوس ولا أرى ❀ بعـــيداً غـــداً، ما أقرب اليوم من غد !

أرى الدهـــر كـــنزاً ناقصـــا كـل ليلة ❀ ومـــا تـــنقص الأيـــام والدهـــر ينفد

لعمـــرك، إن المـــوت مـــا أخطأ الفتى ❀ لكالطـــول المرخـــى، وثنـــياه بالـيد

مـــتى مـــا يشـــأ يـوماً يقـده لحـتفه ❀ ومـــن يـــك في حـــبل المنـــية يـنقد

الظعن والهوادج أضحت لا تعبيراً عن نوع من المفارقة الفنية فحسب بل تعبير عن نوع من المفارقة النفسية أيضاً، إن سلسلة من القيم الجديدة انضافت إلى هذه " الأشياء " وغيرت نظرتنا إليها وردتها من عالمها المادي إلى عالم النفس مصفاة من كل أثوابها الظاهرة[1] وما كتب الله للشعر الجاهلي الاستمرار والحياة إلى الآن إلا من أجل ذلك وإلا ما شأننا بأمكنة وراحلة عفا عليهما الزمان ؟!

لخـــولة أطـــلال بـــبرقة ثمهـــد ❀ تلـــوح كباقـــي الوشـــم في ظاهـــر اليد

بروضـــة دعمـــي، فأكـناف حائل ❀ ظللـــت بهـــا أبكـــي، وأبكـي، إلى الغد

والآن هل من شك في أن هذطا الوقوف على الأطلال وإنما هو وفاء وانتماء استطاع الشاعر الجاهلي أن يضمن لنا حفظه له في وعاء يبقى إلى الأبد؟ إنه وعاء المكان والطلل الذي سيبقى ما بقيت الحياة والناس.

[1]- محمد على طه الدرة، **فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر بطوال**، ص128-12

3-4/ الجزع والحزن لفراق الأحبة:

وهو أيضا صورة من صور الوفاء جسدها لنا الشاعر الجاهلي ليوقفنا على حاله بعد أن ضمن لنا الوقوف على أطلال أحبائه إنها طريقة مغرية تستحضر القلوب ويستشهد بها الشاعر الجاهلي كل من قرأ قصيدته على ذلك الوفاء المنقطع النظير، وفي هذا يقول طرفة:

بروضــــة دعمــــي، فأكـناف حائل ❀ ظللــت بهــا أبكــي، وأبكي، إلى الغد
وقــوفا بهــا صــحبي علــى مطيهم ❀ يقولـــون: لا تهلـــك أســى وتجلــد

3-5/ استحضار صورة المرأة غداة الرحيل:

صورة من صور وفاء الشاعر العربي وهو يسجل لنا تلك الرحلة النسوية المهيبة في كيان القبيلة في صورة حسية تجعلنا نشاطر الشاعر متعة النظر وحرارة الخبر:

كــأن حـــدوج المالكــية غــدوة ❀ خلايــــا ســفين بالنواصــف مــن دد
عدولــية أو مــن ســفين ابـن يـامن ❀ يجــور بهــا المــلاح طــورا ويهــتدي
يشــق حــباب المــاء حيـزومها بهـا ❀ كمــا قســم التــرب المفايــل بالــيد
وفي الحـي أحـوى يـنفض المـرد شاذن ❀ مظاهــــر سمطـــي لؤلـــؤ وزبـــرجد
خـذول تراعــي ربــــرباً بخمــــيلة ❀ تــناول أطــــراف البريــــر وتـــرتدي
وتبســـم عــن ألمـــى كـــأن منوراً ❀ تخلـــل حــر الــرمل دعــص لــه نـدي
ســقته إيــاة الشـــمس إلا لثاته ❀ أُســـفَّ ولم تكـــدم علـــيه بإثمـــد
ووجـــــه كـأن الشمس ألقت رداءها ❀ عليـــــه نقـــي اللـــون لم يتخـدد

3–6/ انجاز الوعد:

صورة حية أخرى يترجم لنا بها الشاعر الجاهلي وفاء العربي وقد تمثل ذلك عند طرفة بن العبد في وفائه لأهل عصبيته فليس له أن يخالفهم مهما كانت درجة الخلاف بينهم فما قطعه على نفسه من وعد فلابد من الوفاء بإنجازه خوفا من أن يوصم بالغدر وقد كان العرب يعتبرون خلف الوعد آفة الأخلاق وورد في أمثالهم " آفة المروءة خلف الوعد "[1] ورووا عن عوف بن النعمان الشيباني أنه قال في الجاهلية الجهلاء: " لأن أموت عطشاً أحب من أكون مخلاف الموعدة "[2].

وما دام الأمر كذلك فليس غريباً على طرفة أن يقول:

وإني وإن أوعدتـــــه، أو وعدتـــــه ❁ لمخلــف إيعـــادي، ومنجـــز موعدي

أي: إن وعدته ابن العم بخير، أو توعدته بشر أخلف الوعيد، وأنجز الوعد، وذلك من مكارم الأخلاق كما رأيت.

3–7/ العزم في المغامرة والترحال:

والعزم يعني الجد مع الصبر فإذا اجتمع الجد والقوة مع الصبر وقد سمى العرب الأسد عزَّاماً لشجاعته وإقدامه وقد سمى الله الأنبياء الذين صبروا وجدوا في سبيل دعوتهم أولي العزم فقال جل شأنه: ﴿**فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ (سورة الأحقاف، الآية رقم: 35)، وهذه الظاهرة الخلقية من مظاهر الشجاعة العربية التي اتخذت صوراً عديدة في شعر الجاهلين وعندما نقف مع طرفة بن العبد لنرى نصيبه من هذا العزم فإننا سنكشف السجف عن فتى شجاع بكل ما تحمله هذه الكلمة وعندما ننظر إلى وصف طرفة لناقته فإننا

[1]- ابن سلام، **كتاب الأمثال**، تح: عبد المجيد قطامش، ص 71.
[2]- المرجع نفسه، ص 71.

نتصور عزم ذلك الفتى الشجاع ونشاطه إذ " مهما تشبه هذه الصور الواقع الخارجي فهي ليست وصفاً له بل تعبيرا استعارياً عن الشاعر فعزم الناقة عزمه.

فهو هنا يقسم إنه ليس ممن يتلبسه الهم نهارا ولا ممن يطول ليله حسبانا لما يلقاه في غده فكم خاض من عراك وحرب حفاظا على عورته و عرضه و محارمه في موطن ترتعد فيه الفرائض ذعرا.

3-8/ الكرم:

وهو مظهر من مظاهر الشجاعة كما أوضحنا ذبك في معلقة امرئ القيس وليس «هناك ما يعونا إلى تأكيد القول بأن بذل العون للمحتاج وإغاثة الملهوف واستجارة المستجيرة عمل من أعمال البطولة لا تنحصر دلالته عند مجرد الكرم وحده كما لا يكسب صاحبه صفة الجود فحسب وإنما هو عمل فيه من الفروسية والبطولة ما لا يقل عن معاني الاستبسال في القتال والذود عن الحياض»[1]، ولعلنا لا نستغرب عندما نرى علوا في الكرم عند العربي الجاهلي فإنما مرد ذلك إلى كونه يعتبر الكرم في شتى صوره مظهرا من مظاهر الشجاعة والفروسية وهذا ما أوجد بعض المظاهر الخلقية المذمومة فيه والتي كان مردها إلى اندفاع نفس العربي الشجاعة في كل شيء حتى في الكرم، ومن بواعث الكرم عند العرب حياة الصحراء القاسية وما فيها من جدب و إمحال إضافة إلى سبب آخر يتمثل في كلف العرب بحسن الأحدوثة و طيب الثناء فهم ذوو أريحية تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف المال عندهم وسيلة لا غاية، وسيلة إلى كسب المحامد.

3-8/ مساعدة الفقراء ومعاشرة الوجهاء:

وهذه صورة من صور الكرم عند طرفة حيث يقول:

رأيت بـــني غـــبراء لا ينكـــروني ❀ ولا أهــل هـــذاك الطــراف الممـــدد

[1]- **محمد زكي العشماوي**، السابق، ص228.

يقول: لما اعتزلتني عشيرتي رأيت الفقراء وغيرهم من المحاويج لا ينكرون أحساني وإنعامي عليهم ورأيت الأغنياء الذين لهم بيوت من جلد لا ينكروني أيضاً لاستطابتهم صحبتي ومنادمتي.

والمراد: هجرني الأقارب ووصلني الأباعد الفقراء لطلب المعروف، والأغنياء لطلب العلا.

3-9/ نجدة المستنجد:

وإنما جعلنا هذه الصورة من صور الكرم ومن ثم مظهراً من مظاهر الشجاعة لأننا رأينا أن طرفة يذكر في معلقته أنه يجود بروحه في سبيل نجدة المستغيث وهذه صورة من أجل صور الكرم ومظهر من أعلى مراتب الشجاعة العربية.

يقول:

وكـــري إذا نـــــادى المضاف محـــنبا ❁ كســـــيد الغضـــــا نبهـــــته المـــتورد

إنه يجعل من إعانة المهموم وبذل العون له عملاً من أعمال البطولة، بل جعل ذلك أحد أهدافه الثلاثة التي لولاها لما كان للوجود قيمة في ذاته.

3-10/ ادخار المحامد:

من كرم الأصل وشرف المنبت وطيب العنصر وصدق العزيمة والإقدام في ميدان الحرب كل هذه الأمور تعد من الأمور المهمة لمن يريد أن يسجل في قائمة الشجعان ولحرص طرفة على تلك المحامد ونسبتها إليه جمعها في بيت واحد وهو قوله:

ولكـــــــــن نفى عني الأعادي جـــــرأتي ❁ عليهـــــــم وإقدامي وصـــدقي ومحتدي

3-11/ العدل:

وقد تجلت هذه الفضيلة في معلقة طرفة في ثلاثة مظاهر هي:

أ/- الصـــبر والمسامـحة:

مظهر محمود من مظاهر فضيلة العدل، وإنما رأينا إدراج هذا المظهر تحت فضيلة العدل لما استشعرنا من نفس طرفة بن العبد التي ساست الغضب على الأقارب نتيجة ظلمهم والشهوة المتمثلة في الحصول على الحقوق المسلوبة حيث استطاع حمل نفسه على مقتضى الحكمة وضبط النفس.

أرى الدهـــر كـــنزاً ناقصـــا كـل ليلة ❀ ومـــا تـــنقص الأيـــام والدهـــر ينفد

لعمـــرك، إن المـــوت مـــا أخطأ الفتى ❀ لكالطـــول المرخـــى، وثنـــياه بالـــيد

مـــتى مـــا يشـــأ يـــوماً يقـــده لحـــتفه ❀ ومـــن يـــك في حـــبل المنـــية يـــنقد

ب/- الإحسان:

وهو مظهر محمود من مظاهر العدل مع النفس ومع الناس وفي هذا يقول طرفة بن العبد:

لعمـــرك مـــا الأيـــام إلا معـــارة ❀ فمـــا اســـطعت مـــن معروفها، فتزود

ولا خـــير في خـــير تـــرى الشـــر دونه ❀ ولا نائـــل يأتـــيك بعـــد الـــتلدد

فهو هنا يدعو إلى الاستزادة من الإحسان بشتى صوره وفي المقابل استقباح المنكر والبعد عنه، كما أنه يكره الخير والإحسان الذي يأتي بعد التحير والخصومة.

ج/- الحياء:

ويتمثل هذا المظهر الخلقي في وصف طرفة لمحبوبته وتشبيهه لها بالظبي الخذول الذي يتناول أطراف ثمر الأراك ويستتر بأغصانه ونستشف من هذا الاستتار الذي أحبه طرفة في الظبية حياء المرأة المستتر وراء ذلك الدلال العجيب.

يقول طرفة:

وفي الحـــي أحـــوى ينفض المردشادن ❀ مظاهـــــر سمطـــي لؤلؤوزبـــرجد

خـــذول تراعـــي، ربـــربا بخمـــيلة ❀ تـــناول أطـــراف البريـــر، وتـــرتدي

ويتمم طرفة هذا المظهر الخلقي الحسن في محبوبته بمتمم عرضي يتمثل في قوله:

وتبســـم عـــن ألمـــى، كـــان مـــنورا ❀ تـــخلل حر الرمـــل، دعـــض له ندي

ســـقته إيـــاه الشـــمس إلالـــثاته ❀ أســـف ولم تكـــدم علـــيه بإثمـــد

ووجـــه كـأن الشـمس ألـقت رداءها ❀ علـــيه نقـــى اللـــون، لم يـــتحدد

إن ذلك الثغر الندي وتلك الأسنان البراقة وذلك الوجه المشرق الذي لم تشب جماله الغصون والشقوق منعه الحياء من الخروج إلى مثل تلك المؤثرات، وإن وقعت عليه العين مرة واحدة فهو ظبي شرود لن تقع عليه مرة أخرى، وفي البيت العاشر ما يدل على عفة المرأة حيث إنها لعفتها تأكل اللحم وتترك العظم فهي بذلك عفيفة ليست بشرسة.

4/– معلقة لبيد بن ربيعة العامري:

عندما نقف أمام ملعقة لبيد بن ربيعة ندرك من أول وهلة أنه وظف في ملعقته جميع مجالات النشاط الإنساني الخمسة الطبيعة ،الإنسان، الحيوان، المجتمع، الزمن ونحن إذا نعتبر المعلقات العشر رسائل أخلاقية مطولة، وأن مجالات الخمسة السابقة تمثل قنوات صالحة ليبث من خلالها الشاعر رسالته تلك فإننا نجد أن لبيد بن ربيعة رأى جميع المجالات القنوات السابقة الأهمية في تأدية الرسالة الأخلاقية إلى متلقيه، ومن خلالها جميعا أخد لبيد يسترسل في ملعقته.

«إن الشاعر الجاهلي تلمس بغريزته الغامضة الصور الموحية لتجسيد أفكاره، ودلل بذلك على تنبهه إلى الارتباطات الحميمة بين مظاهر العالم الخارجي و مشاعر العالم الداخلي و خواطره»[1].

إن الصراع الشديد بين ظروف قاهرة وشعور بانتماء لهو الخيط النفسي العام الذي ينتظم ملعقة لبيد من أولها إلى أخرها «إنها قصة الحياة: فراق فلقاء ثم فراق فلقاء. والإنسان بين هذا كله وسط أمواج من العواطف والمشاعر هادئة حيناً وصاخبة أحياناً: ينتقل من ذروة الفرح إلى حضيض الشقاء»[2].

إن لبيدا بن ربيعة في نظمه ملعقته في هذا الجو النفسي المتناقض الذي اختطه لقصيدته يحاول أن يجعل من أرضية صالحة قوامها مجالات الخمسة السابقة ومن ثم يشرع و ينفث في روع متلقيه كل ما يرد إيصاله و الفخر بيه من أخلاق الإنسانية أحب الإنسان العربي الجاهلي امتلاكها لنفسه أو لقبليته ومن ينتمي إليه ومن ثم استطاع الشاعر الجاهلي أن يؤثر فينا إلى لأنه يخاطب فينا ضمائرنا و أخلاقنا ولو كان الأمر مقصوراً على وصف طلال

[1]- إليا حاوي، **فن الوصف و تطوره في الشعر العربي**، ص 49.
[2]- محمد زكي العشماوي، **النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية**، ص 241.

عاف، أو ناقة جسور، أو فرس جموح، أو روضة أنف، لما استمر تأثير الشعر الجاهلي تيقن بأن «الدنيا روح تلمسها بيد من المادة فالروح هي الحقيقة و المادة هي وسيلة الإحساس بها»[1].

إن الشعر الجاهلي «أدب تمليه بواعث الحياة القوية و تخاطب به الفطرة الإنسانية عامة، وهو الأدب الصحيح العالي»[2].

إن بواعث الحياة القوية تلك جعلت من الجوانب الخلقي قانونا منظّماً لحياة الإنسان الجاهلي ليس عنده غيره، و إن تلك البواعث الكثيرة استصلحت ما بقي من فطرية الأخلاق العربية التي استطاع الإنسان العربي الجاهلي بامتلاكها أن يصارع الحياة بكل ظروفها القاسية .

وقبل الشروع في البحث في إطار الخلقي في معلقة لبيد نود أن نشير إلى أمر مهم جدًا حتى لا يتهمنا أحد بخلط بين المظاهر الأخلاقية لأصول الفضائل الأربعة، رغم أننا اشرنا في الفصل الأول من هذه الدراسة إلى أنه من الممكن أن تتداخل الفضائل النفسية فيما بينها وأن ذلك لا يعد تهافتا في تقسيم الفضائل عند قدامة بن جعفر، و عرفنا كيف يكون أحد المظاهر الأخلاقية أساسًا لكثير من الفضائل .

ونضيف هنا ما نود إيضاحه من أن الأصول الأربعة للأخلاق يختلف مقدار وجود كل منها في معلقة دون أخرى، وأن هناك تباينا في تعدد مظاهر الأخلاق تبعا لكل أصل منها وأن ما نراه مظهراً للشجاعة في معلقة بعينها فقد نراه مظهرا للعقل في معلقة أخرى وذلك يرجع في نظري إلى مرونة تلك المظاهر الأخلاقية من جهة، ثم ترابط الأصول الخلافية الأربعة في ما بينها ترابطاً وثيقًا من جهة أخرى من ما يمكن من تبادل المظاهر الأخلاقية بين أصل أخلاقي و أخر من أصول الأخلاق الأربعة.

[1]- العقاد، **مطالعات في الكتب و الحياة**، ص 08.
[2]- المرجع نفسه، ص 12.

ولأن، وبعد هذا الإيضاح المهم نعاود النظر الدقيق في معلقة لبيد رضي الله عنه لتحديد الإطار الخلفي فيها، والذي وجدناه يتخذ الشكل الأتي :

1/- العقل:

وقد اتخذت هذه الفضيلة الخلفية في معلقة لبيد المظاهر التالية :

أ/- **الشعور بالانتماء**: وهذا المظهر نلحظه من أول بيت في معلقة وقد اتخذ الصور التالية:

الوقوف على الأطلال و دعاء لها : وفي هذا يقول لبيد:

يغشها الوفود وغرباؤها يجهل بعضها بعضاً، وتُرجى عطايا الملوك و يُخشى معايب تلحق في مجالسها ناظرت فيها رجالا غلاط أعناق كالأسود يهدد بعضهم بعضاً بسبب الأحقاد التي بينهم، فأنكرت دعاوى تلك الرجال الغلب وأقررت بما كان حقا منها عندي، أي في اعتقادي، ولم يفخر على كرامها، أي: لم يغلبني بالفخر كرامها.

عدم الميل على الهوى: ومن رزق عقلا راجحا ونفساً أبيه لا تدنس أعراضه بعار، ولا تفسد فعاله، ولا تذيع وتنشر فتبقى أبد الدهر لأنه لا يميل مع هواه، وهذا ما يريد إثباته لبيد لنفسه و لقومه حيث يقول:

لا يطبعــون ولا يبـــور فعلـــهم ۞ إذ لا تميـــل مـــع الهـــوى أحلامها

ب/- الشجـاعــة:

عرفنا أن الإنسان الجاهلي احتاج إلى التغني بمكارم الأخلاق، و الشجاعة بمظاهرها المتعددة ذات الصور المتنوعة إحدى تلك المكارم التي تغنى بها الشاعر الجاهلي، وإذا كان اللغويين يرون أن الشجاعة، جنون النشاط فإنني أرى أن ذلك النشاط ليس مقصورا على النشاط الجسمي فقط و إنما النشاط : كل ما يرى الإنسان في

مزولته تحقيق هدف أو وصولا إلى الغاية، فهناك نشاط في التعامل وهناك نشاط في الأخلاق و هناك أيضا نشاط في التفكير و الإبداع وغير ذلك، ولما كان الأمر على هذه الحال فإن الشجاعة قد اتخذت عند العرب مظاهر عديدة كان منها عند لبيد في ملعقته خاصة المظاهر التالية :

الوفاء: جاء مظهر الوفاء في ملعقة لبيد في صور ثلاث:

الصورة الأولى: الوقوف على الأطلال المتوحشة

إن الوقوف على الدمن و الأطلال دراسة عفا عليها الزمن لا أنيس فيها لهو أروع الأمثلة لوفاء الإنسان الجاهلي ووقفته تلك الوقفة الوفية الشجاعة وإنما اعتبر الوفاء بالوقوف على الأطلال من مظاهر الشجاعة «لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد تفكر و إذا هو تفكر وجل وجبن، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة، ولأوهام المؤذية و السوداوية [الفاسدة] فصورت له الأصوات ومثلت له الأشخاص وأوهمته المجال بنحو ما يعرض لذوي الوسواس وقطب ذلك رأسه سوء لتفكير»،[1] ولذا كان من يقف على تلك الأطلال الموحشة وفاء لأهلها النازحين عنها شجاعا لكل ملي هذه الكلمة من معنا.

يقول لبيد:

عفت الديار محلها فمقامها ۞ بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عري رسمها ۞ خلقا كما ضمن الوحي سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيسها ۞ حجج خلون حلالها وحرمها
رزقت مرابيع النجوم و صابها ۞ ودق الرواعد جودها فر هامها
من كل سارية و غاد مدجن ۞ وعشية ومتجاوب ارزامها

[1]- المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص 160.

فعــلا فـروع الأيهقــان و أطفلت ۞ الجلهـــتين ظـــباؤها ونعامتهـــا

و العـين ساكنـــة علـى أطلائهـا ۞ عــوذا تــأجل بالقضــاء بهامهـــا

إن تلك الدهن التي مر عليها بعد مفارقة أهلها سنون عديدة فأمطرت ثم أعشب فسكنتها الوحوش والهوام لمخيفة حقا خاصة إذا وافقت زيارتها أمطار غزيرة ذات رعود وبروق و رهج و وهج مما يستوجب على من يقف عليها قلبا رابط الجأش لا يهاب شيئا.

الصورة الثانية: الدعاء للديار بالسقيا

ومن وفاء حب الفارس الشجاع أيضا حب الديار الأحبة في محبتهم و تعهدها بالزيارة و الدعاء لها بالسقيا باعتبارها كانت دار للأحباب يشد الشاعر إليها شعور بالانتماء إلى أماكن التعارف و اللقاء و الذكريات .

ورزقــت مــربيع الـنجوم و صـابها ۞ ودق الـرواعد جــودها فــر هامها

مـن كـل سـارية و غـــتتاد مدجن ۞ وعشيـــة متجـــاوب ارزامهـــا

الصورة الثالثة: تذكر الأحبة

من أجل سور الوفاء أن يتعلق الإنسان بخيوط الذكريات مع الأحبة النازحين "وحين يعود لبيد إلى لحظة الوداع لا يكاد ينسى منها شيئا فهوا يعيشها بكل وقائعها: فلن ينسى أبدا تلك اللحظة التي صعدت فيها النساء إلى هوادجهن كأنهن الظباء قد دخلن الكناس، ولن ينسى ذلك.

خاتمة

إن الجانب الخلقي جانب مهم جدا خاصة بعد أن عرفنا من خلال دراساتنا هذه أن القيم والقضايا الأخلاقية هي الرسالة التي وجد من اجلها الشعر العربي على وجه الخصوص حيث كانت الأخلاق عند العرب في الجاهلية المنبع الوحيد الذي منه ينهلون وعنه يصدرون مما اوجد عندهم وحدة في التصوير، ولا ادري كيف أغفل بعض الباحثين هذا الجانب المهم في تشكيل القصيدة العربية القديمة ؟

من النصوص المعلقات العشر أرضا خصبة وصالحة لهذا النوع من البحث فوجدت أن الجانب الخلقي بمظاهره وصوره المختلفة قد اخذ مكانا واسعا في تلك النصوص وان ما من في تلك النصوص إلا وينطوي على مظهر أخلاقي معين، كما وجدت أن التزام الأدبي عند الشعراء الجاهلين اتخذ مناح ثلاثة:

1- المنحي الخلقي.

2- المنحى القلبي.

3- المنحى الاختلاقي.

شكلتها بواعث الخلاق ومصادرها في نفس الشاعر العربي الجاهلين.

وبالبحث في تحديد إطار خلقي لكل معلقة من المعلقات العشر وجدت أنّ أبيات كل معلقة تنطوي على أهداف خلقية ومظاهر وصور أخلاقية متنوعة لم تخرج عن الانتماء إلى واحدة من أمهات الفضائل الأربع مما أكد لي أن وحدة التصوير لدى الشعراء الجاهلين مردها إلى وحدة في التصوير الخلقي ليس غير. إلا أنني لم اكتف بهذه النتيجة بل قمت بوضع استبيانة توضح فضائل ورذائل الشعراء العشرة في معلقاتهم حسب أصول الأخلاق فتأكد لي أن مظاهر عند كل شاعر هي الأغلب مما يؤكد أن الأصل في الإنسان حب الفضيلة ومكارم الأخلاق وانه مهما خنقت رذائل الشاعر فضائله فإن جذوة الفضيلة باقية ومتأصلة فيه فهي الأبقى والأقوى.

بعد ذلك اتجهت إلى البحث في عناصر الصورة الأدبية، وكذلك مصادر الصورة الفنية لأصول الأخلاق عند الشعراء المعلقات العشر فوجدتها لا تخرج عن ثلاثة مصادر (طبيعي–حيواني–بشري) استمد الشاعر المعلقة منها صورة الفنية بأنماطها الأربعة (التشبيه–المجاز–الكناية–الرمزية) ولعل أهم ما وصلت إليه في هذا المجال أن من الخطأ الفادح أن ننظر إلى الشعر العربي القديم والجاهلي منه خاصة بنظريات أدبية غربية لها ظروفها المتنوعة التي نشأت عليها، وإنما الواجب أن نبدأ مما انتهى إليه علماؤنا ونقادنا القدماء خاصة وان الظروف نشأة الشعر الجاهلي وطبيعته لا تخضع لنظريات الغرب الأدبية خاصة رمزية، وقد توصلت من خلال قراءة متأنية لعلماء البلاغة والنقد والغة القدماء من العرب والمسلمين إلى أن الرمزية في الشعر العربي لجاهلي خاصة هي: محاولة من الشاعر إغراء المتلقي بالإشارة والإيمان له بصور تعبيرية فنية يكون وراء معناها المباشر معنى آخر يقصده الشاعر ويرمي إليه . وقد التعريف التخفيف من وطأة الرمزية بمفهومها الغربي .

هذا وقد كان الطريق أمامي شائكا جدا نظرا لما حظيت المعلقات العشر من الدراسات كثيرة من قبل الباحثين إلا أن الجانب الخلقي لم يجد منهم اهتماما لذا أهيب بطلبة العلم وزملائي بأن يتجهوا إلى البحث في هذا الكنز العظيم في النصوص العربية الأخرى ليكشفوا الحجب عن كثير من أسرار النصوص الشعرية والنثرية التي تزخر بمظاهر وصور الفضائل و الأخلاق.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: الكتب

1. ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج10، نشر، عبد الرحمن بن بن قاسم، المغرب، 1401هـ.
2. ابن قتيبة، **كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني**، تصحيح سالم الكرنكوي، دار النهضة الحديثة، بيروت-لبنان.
3. أبو علي القالي، **الأمالي**، ج1، تح: محمد عبد الجواد، دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان.
4. أبي هلال العسكري، **الفروق في اللغة**، تح: إحياء التراث الإسلامي، ط7، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1991.
5. أحمد محمد الحوفي، **الحياة العربية من الشّعر الجاهلي**، دار الفكر العربي، مصر، ط2، 1963.
6. أرسطو طاليس، **علم الأخلاق**، تر: أحمد لطفي السيّد، ج1، دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1924.
7. الألوسي، **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**، شرح محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
8. بن قتيبة، **الشعر والشعراء**، تقديم: حسن تميم، دار إحياء العلوم، لبنان.
9. التبريزي، **شرح المعلقات العشر**، تح: فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، سورية.
10. الجاحظ، **الحيوان**، ج1، تح: عبد السلام هارون، مكتبة إحياء علوم الدين.
11. جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب**، ج1، جامعة بغداد، العراق، ط2، 1993.
12. شوقي ضيف، **العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ط11.
13. عبد الخالق بن مساعدة الزهراني، **العقيق**، مج 13، ع25، 26 جمادى الأول، 1420هـ.
14. عبد المالك مرتاض، **السبع معلقات: مقاربة سيميائية أنتربولوجية لنصوصها**، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، سورية، 1988.
15. علي البطل، **الصورة في الشّعر العربي حتّى آخر القرن الثاني الهجر: دراسة في أصولها وتطوّرها**، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983.
16. لويس عوض، **الاشتراكية والأدب**، دار الآداب، بيروت-لبنان، 1963.
17. القرشي، **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، دار بيروت للطباعة والنشر، 1984.
18. محمود شكري الألوسي، **بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب**، ج1، شرح وتصحيح محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

19. المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب اللبناني، 1966.

20. المفضل الضبي، **المفضليات**، تح: عبد السلام هارون، ط6، بيروت- لبنان.

21. ناصر بن عبد الرحمن الخنين، **الالتزام الإسلامي في الشّعر**، مكتبة الرشد، الرياض، 2004.

22. ندى الشايع، **معجم لغة دواوين شعراء المعلّقات العشر تأصيلاً ودلالةً وصرفًا**، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1993.

ثانيًا: القواميس والمعاجم

1. ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، مادة: خلق.

2. الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، ج4، تح: عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، 1985.

3. الزبيدي: **تاج العروس من جواهر القاموس**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان.

4. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، القاهرة، ط3، 1998.

5. محمد بن يعقوب الفيرز أبادي مجد الدين، **القاموس المحيط**، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، 2005.